الفصل الثاني

وادي بيشة

لم يزر أحد من الأوروبيين -حسب علمي- من قبل ولا من بعد، هذه القرى السفلى لمحافظة بيشة، لقد استقبلت القرى العليا الأكثر أهمية الكثير من الزوار الأجانب، أولهم ربما كان تاميزيه الفرنسي، عام ١٨٣٥م، ووصل بعد فترة طويلة إلى المكان نفسه كولونيل واخوب، قادماً من ساحل البحر الأحمر، عام ١٩١٦م، أثناء الحرب العظمى. بينما سبقني بعام أو عامين، ألماني مسلم يدعى ليوبولد فايس قادماً من الرياض عن طريق رنية، وهي رحلة مشهورة له عبر أرض كبيرة لبلاد لم تستكشف من قبل، ولم ينشر عنها -فيما يبدو- تقرير كامل. والذي وقع في يدي عن أخبارها هو تقرير بسيط حرره السيد فايس إلى جريدة ألمانية. وللأسف، يبدو أن فايس كان لا يملك الأجهزة ولا الرغبة في أداء الأعمال الجغرافية التي بدونها ستكون أعظم الاكتشافات وأكثرها إثارة خالية بالضرورة من أية قيمة علمية.

ذكر فايس أنه دخل وادي نجعة ورأى نخيل الجنينة على بعد، وهذا لا يبدو أنه من الممكن. كان مهتماً أكثر باللون المحلي بدلاً من التضاريس، ويدعي أنه أول الأوروبيين الذين زاروا هذه المناطق، وهو الادعاء الذي تمكنت من إضعافه بما فيه الكفاية من المعنى المتضمن هنا. جاء فايس مثلي بعد سيول حديثة، ووجد الماء ينساب بالفعل في بعض أنحاء الوادي. وأشار أيضاً إلى حقيقة أنه، في هذه

المناطق الحدودية، تتمتع النساء بحرية أكثر، مقارنة بالمناطق الملتزمة في الجزيرة العربية، وأضاف أنه كان من بين التقاليد السائدة في هذه القرى القائمة في الجبال إلى عهد قريب، أن يقدموا للزائر العابر الطعام والمأوى وبعض ألوان المتع غير المقبولة. وأجزم بأن هذا ليس قائماً الآن.

من الممتع في بلاد، كالجزيرة العربية، أن ترى امرأة، والمتعة تكون أكثر لو تجاذبت الحديث معها، في الحقيقة مثل هذه التجربة التي تعد نادرة ندرة الواحة في الصحراء تركت رفاقي للاستقرار في المعسكر بمجرد نزولنا من فوق الجمال، وذهبت فوراً حاملاً معي شبكة صيد الفراشات لدراسة حياة الحشرات داخل مزارع النخيل. انهمكت سريعاً بجمع الجندب (الجراد) أثناء تجوالي بين أشجار النخيل وعبر مساحات القمح الناضج والشعير عند النهاية الشرقية للواحة. تعمدت عدم الاقتراب من بئر على مسافة غير بعيدة مني ومن حوله عدد من النساء اللاتي وقفن مندهشات، بادئ الأمر، ربما مستغربات لما أقوم بفعله وتدريجياً وفي بطء تقدّمن ناحية الجانب البعيد من الحقل الذي كنت مشغولاً فيه. غابت إحداهن في عمق الحقل والتقطت شيئاً رفعته في دعوة نحوي. تقدمت نحوها في حذر ووجدت أن ذلك الشيء كان جرادة وقد قمت بإدخالها حالاً داخل زجاجة الموت التي أحملها. ثم اشتركنا كلنا بعد ذلك في جمع حشرات المزرعة ووجدت أن اهتمامي بالصيادات الحسناوات قد بدأ يؤثر على حماسي بجمع الحشرات.

اجتمعنا عند البئر في حديث عام. إحدى المرأتين كانت شابة متزوجة، ولها صغير متعلق بفستانها ورضيع متعلق بثديها. وكانت الفتاة الأخرى هي شقيقتها الصغرى أيضاً جميلة جداً، صالحة للزواج، ولكنها لا تزال بكراً. وفي أسلوب فطري قادت الأخت الكبرى مسار الحديث، بينما تركت الأخرى حديث بلاغتها

لعينيها. لقد أخبرتهما من أين جئت وإلى أين سأذهب، وأشياء متنوعة أخرى. واخبرتاني بدورهما، عن بئرهما ذات الصهريج الواسع غير المبطن، المحمي من الانهيار الداخلي بإطار خشبي عند الأجزاء السفلى الطرية الطموية، وقد تم حفرها بلا تماسك مماثل في الجزء الأعلى، كما أخبرتاني، أن تربة البئر كانت متصلبة كالصخر.

نهضت حينما خطر بذهني أنني ربما قد تجاوزت الحدود المعقولة لهذه المحادثة الممتعة، وعدت مرة أخرى إلى جمع الجنادب ولكن أصرَّت الفتاة الصغرى هذه المرة على مصاحبتي. وقد أثرت ما كنت أجمع من عينات بنشاط ومرح وبحركات رشيقة سريعة، ثم قمنا معاً بجمع بعض النباتات التي عرفتني أسماءها المحلية. نبهني اقتراب موعد غروب الشمس إلى ضرورة العودة إلى المعسكر. ولما عزمت على الذهاب بكلمات وداع صديقة، طالبتني الفتاة في شجاعة بجائزة مقابل ما قامت به من أعمال. ولم تكن معي نقود حينها، ولذلك وعدتها بزيارة أخرى لحديقتها عند الصباح وقبل بداية الرحلة. لقد حافظت على وعدي حقيقة ولكنها لم تف به، برغم أن أختها كانت هناك في صحبة الأطفال. لقد وعدتني أختها بتسليمها الريالات القليلة التي لم أنس إحضارها معي مقابل مساهمتها في إثراء مجموعتي من الجنادب، وبعد لحظات تركت الجنينة بأمل ضئيل جداً أن أراها مرة أخرى.

بمجرد وقوفنا فترة ما بعد الظهر عند خشم الذيب اتخذت الحيطة بإرسال كلٍ من سعد وابن معدي أمامنا لإشعار أهل الجنينة بقدومنا، تم تأمين حطب الوقود والعلف حين وصولنا، وكانت غزالة حسن (إدمى أخرى) تحت الطبخ استعداداً لحفلة العشاء التي شاركنا فيها عدد من القرويين. بدأ الطقس يتغير بعد الغروب إذ ظهرت سحب ثقيلة وبرق من ناحية الشمال والجنوب وريح متقلبة عبثت برؤوس أشجار النخيل. كانت السماء صحواً عند موعد العشاء وهدأت الرياح

تماماً، وطلع القمر من وراء حدائق النخيل، مكملاً صورة مثالية للواحة. لقد جذب ضوء المعسكر كتلاً من الحشرات والتي وجدها رفاقي مزعجة. وقالوا إن البعوض يكثر في هذا الوادي خاصة في الصيف، غير أنه لا وجود له في هذا الوقت. وكانت فراشات الكبريت في وفرة هنا، كما كانت في كل مكان وعشّشت مستعمرة كبيرة من الغربان - غالباً ذات الذيل المروحي - فوق أشجار النخيل، يسمونها (سكنى) هنا، غير أنني لم أسمع بهذا الاسم لهذا الطائر في أي مكان آخر في الجزيرة العربية.

يعود أصل سكان وادي بيشة إلى قحطان من الروشن[١] وهي القرية الرئيسة الواقعة تجاه أسفل الوادي وإلى شهران من نمران[٢] أكبر مركز تجاري لقبيلة قحطان ويقع بجوار الروشن في أعالي الجبال. أكبر فخوذ قحطان هم مجموعة أكلب الذين يملكون الجنينة وقرى عديدة أعلاها، ما عدا، قرية عصلان أعلى الوادي، التي تتبع مجموعة بني هاجر وهم أسلاف القبيلة التي تحمل الاسم نفسه، والتي انحصرت الآن في محافظة الأحساء وهم يزعمون أن عصلان هي موطنهم الأصلي. أما الروشن فإنها قرية مأهولة بمجموعة أخرى تدعى بني السلول - أيضا من أصل قحطاني - ويملك بنو معاوية قرية نمران والقرى الواقعة أسفل الوادي ويتبعون قبيلة شهران.

بلغ عرض المجرى عند الجنينة حوالى نصف الميل، من جانب لآخر، وبه بالفعل عدد من أحواض الجداول عرض أكبرها حوالي ٢٠٠ ياردة وهو حيث

(١) تعد الروشن قاعدة بيشة مع نمران وقد أصبحتا الآن من أحياء بيشة، وسكان الروشن من بني سلول، منذ القدم. (المراجعون).

(٢) نمران: من قرى بيشة القديمة، وكان يقام بها سوق يسمى سوق الخميس، وسكانها القدامى من بني معاوية من المخلف، ولا يزالون فيها إلى الآن. (المراجعون).

عسكرنا. كانت بقية المجرى مغلقة بهضبات الرمال التي تنمو عليها شجيرات الحمض. وتقع مزارع النخيل في الجنينة بكاملها على الجانب المرتفع للوادي إلى جانب العديد من أبراج المراقبة المدمرة المنتشرة بينها. بينما تقع القرية نفسها –وهي ذات حجم متواضع– في الأرض المكشوفة خلف الجنائن وتمتد في شكل قوس لطيف لمسافة نصف الميل. توجد العديد من شجيرات الطرفاء بين الهضبات الرملية، ولكنها ليست بالكثافة التي تشاهد فيها تجاه أسفل الوادي. لا توجد مزارع نخيل إلى ما وراء الجنينة، ولكن على بعد ميلين إلى الشمال منها تجاه أسفل الوادي توجد أرض واسعة لحقول الشعير، مع أثل مزروع كثيف يلاحظ حول أطلال قصر مهجور يسمى خورقان.

يقع بئر ثملة الذي ذكرناه سابقاً، أسفل خورقان وبعدها يستمر المجرى جافاً إلى حين التقائه وادي رنية عند هضبة تسمى جبل سلي، ويقال إنها رحلة تستغرق أربعة أيام (ربما ٧٠ أو ٨٠ ميلاً) من الجنينة. تتلاقى الجداول المتحدة مع مجرى تثليث في حجلة المخاتمية. ويقال –وهذا حق–: إن عمق المياه في الآبار، في الوادي، يرتفع كلما تحرك المرء مع اتجاه أعلى الوادي. يصل العمق في ثملة إلى قامتين فقط، وثلاث قامات في خورقان، وخمس إلى ست في الجنينة، وإحدى عشرة واثنتي عشرة قامة عند الروشن. تنتظم هضبات قليلة منخفضة من صخور سوداء (بازلتية) على امتداد الجانب الأيسر للوادي، مع اتجاه الوادي في الجنينة. بينما تقع سلسلة قصيرة تسمى واغداً على بعد شرق سلسلة الجفار وإلى شمال كتلة خشم الذيب نفسها. كانت بقية السمات التلية من موقع الجنينة هي نفسه السمات التي أشير إليها أثناء مسيرتنا. لقد أخبرت بأن السيول هذا العام قد

استمـرت مدة عشرة أيام دون انقطاع وتوقفت حـقيقة وبالفعل قـبل وصولنا بثلاثة أيام. وهذا سبب التشبع المائي لبطن الوادي فيما يلي معسكرنا.

كانت مسيرتنا لليـوم التالي باتجاه أعلى الوادي إلى الروشن ثرية بما هو جدير بالاهتمـام. استيقظنا لصـلاة الفجر قبل الخـامسة صبـاحاً، وتحركنا قبل السـابعة سائرين في وسط المجرى. يصعب علينـا أحياناً التقدم للأمام بسبب كثـافة أشجار الطرفاء، غير أننا سـرعان ما صرنا من وراء مزارع نخيل الجنينة وعـصلان المنتظمة على الجانب الأيمن متقدمين نحو الشقيقة التي تجـمعت أشجار نخيلها الكثيفة أمام تل بني سليم على الجانب المقابل وعلى مسافة مـعاكسة قليلاً لاتجاه أعلى الوادي. كان الناس مشغولين بحصاد الشعير في بعض الحقول في الوادي على يسارنا وكان المحصول ذا مظهر ثري. تعتمد الزراعة هنا على الري بواسطة الآبار تدعمها سيول موسمية. وتُركت قطعة أرض كبـيرة بوراً لزراعة الذرة الصفراء هذا العام حيث إن الدورة المحلية للـزراعة كانت سنوية. بدت لنا الشـقيقـة وكأنهـا قرية دون نظام، وتوجد بها قصور قليلة مبعثرة حـول حدائق النخيل، بينما قامت قرية صغيرة على قمة بني سليم مقابل بركة طويلة لماء آسن في الوادي إلى يسارنا. ينتمي الناس هنا إلى أكلب وهو قسم يتبع بني عيسى. وتلاحظ فيما وراء هذا الموقع أشجار النخيل في صف طويل على الجانب الأيسر ويسـتمر طريقنا عبر مسافـة غنية بحقول الذرة الصفراء مع مجمـوعات كبيرة لأشجار الشار والطرفـاء منتشرة هنا وهناك. وتوجد عند نهاية شريط النخيل قرية صغيرة مكونة من عشرين منزلاً تقريباً.

يقع طريقنا تجاه الجـنوب الغربي على تل يدعى الخرسـعة وسرعـان ما دخلنا غابة الطرفاء الكثـيفة التي تمتد عبـر القرية لمسافة معـتبرة. تقع جبال جـمعور إلى

الخلف على يميننا وعلى مسافة أربعة أميال كما تقف تلال العميد الصغيرة على مسافة ميل واحد، إلى يسارنا من وراء جانب الوادي الأيمن. لا يمكن استخدام خشب الطرفاء لسوء حظ أهل بيشة حطباً للوقود، وبذلك فقد تركت الأشجار لتنمو دون تدخل وهي الآن تحتل مساحات كبيرة جداً كان يمكن تنظيفها للزراعة.

وصلنا إلى مكان معرَّى من أشجار الطرفاء بعد مسيرة خمس أميال من الجنينة حيث أقام أحد الأفراد المستثمرين مزرعة نخيل صغيرة إلى جانب أرض كبيرة لزراعة الذرة الصفراء. وكان له قصر صغير هو كل البناء الموجود في الموقع يسمى خيبر. من الممكن رؤية كل القرى التي عبرنا بها من هذا الموقع، بما في ذلك نخيل الجنينة بينما تحدد المنظر أمامنا بتلال قفة الصغيرة التي تطل على نخيل الخرسعة وقرية صغيرة على الجانب الأيسر للوادي. وصلنا إلى هذه القرية بعد عبورنا لغابة كثيفة من الأثل والطرفاء. اعترضت مسطبة منتظمة من الجبس ارتفاعها حوالي ٢٠-٣٠ قدماً المسافة بين النخيل والتلال الصغيرة وقد أقيمت عند قمتها ومن حولها أعداد من أعشاش مبنية من سعف النخيل. وقامت على مستوى الوادي وبين النخيل قرية صغيرة وبعض صخور جرانيت حمراء كبيرة، وكلها حددت نهاية المنطقة. كان عرض الوادي هنا حوالي نصف الميل إلى الجانب الأيمن الذي برز وكأنه صخرة ذات حجم معتبر.

وصلنا سريعاً إلى انبعاج واسع في الوادي حيث بدأت أشجار نخيل نجيعة وكأنها الطرف النحيل لوتد، وتطور شكلها سريعاً إلى هيئة حزام كثيف من الأشجار داخل المنحنى العريض لجانب الوادي الأيسر. كان هذا أكبر منطقة نخيل عهدناه، علماً بأن قرية الشقيقة ربما كانت ذات أهمية أكثر في مجال حقول الذرة الصفراء.

على أي حال لا يبدو أن هنالك قرية ما عـدا قصوراً منعزلة عديدة. كان الوادي في هذا المكان ذا عرض مـعتبر، ورمـلي بعض الشيء ولكنه كان مغطى بقنوات سـيول عميـقة متآكلة. كـانت هنالك أيضاً، مساحـات كبيرة لمزارع الذرة الصـفراء، حيث كانوا يقومون بغـربلة الشعير بينما كان القمح يشـارف مرحلة النضج، ومعظم ملاك الأراضي هم من بني أكلب، من البدو غير مـوجودين في الموقع وكان أجراؤهم في معظمهم من الرقيق المحررين من أصل زنجي. كانت ضريبة الذرة وهي العشر – عشر أوعشرة كـما يقولون هنا – ولكن حقيـقة فإن نصيب الحكومة فـي النوع يثبت بعد التقديـر له، وعلى المالك مسؤولية تسليم عـدد كذا من الصاعات من الحـبوب إلى الرئاسة بالمنطقة، والرجل الأول في هذه القرية يسمى المنيع.

توجد في هذه المنـطقة، وإلى مسـافة مع اتجاه أعلى الوادي، آبـار تتابع على فترات، كل منها يقع تحت شجرة سدر منتشـرة وتطل على مساحة متوسطة للقمح أو الشعيـر. تركنا المجرى على بعد مسافـة قصيرة من حقول وادي النجـيعة الذي اندفع إلى أسفل جنوباً إلى مسافة لينحني، مـرة أخرى بدرجة حادة خلف حواجز جرانيتيـة ليحجب عنا مجموعة مـن القرى. ويلاحظ إلى يميننا وعلى بعد، الغطاء النباتي الداكن الخـضرة لرافد مـهم يسمى الثنية (أو وادي تبـالة) الذي يجري إلى أسفل، من أعـالي الجبـال الواقعـة ناحية الـغرب، في طريقه لـلاتحاد مع الوادي الرئيس في انبعاج النجيعـة. كما تقع عبره مجموعة السـلاسل الجبلية وهي عالية نوعاً ما، وممتدة من جهة الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي من موقعنا، تبدأ عند البرصـاء على اليسار وتنتـهي إلى السواده على اليمين. وبين هـذين توجد سلسلة ثالثة تسـمى محلياً أم فرجين. توقـفنا لمدة ساعة تقريبـاً لتناول الإفطار في السهل الخشن الذي يـحتل منحنى الوادي، والذي يبـدو على بعد مـسافة مـيلين عنا من

الأمـام ومن الخلـف وإلى الأيسـر، مع سلسـلة يلا من الخلف، جـهـة الجنوب الشرقي. ظهر إلى يميننا شريط طويل من أشـجار الأثل من جهة الجنوب الشرقي، إلى الشمال الغربي، ويبدو كأنه بطن لوادٍ قديم مهجور.

وصلنا إلى أرض تحوي العديد من الكثبان الرملية، وصخـور جرانيتية مبعثرة بعد مواصلتنا المسيرة تجاه الوادي حينمـا عاد الوادي شمالاً مرة أخرى بعد انحناءته العريضة جنوباً. ووصلنا بعـد فترة وجيزة إلى مـرتفع على الجانب الأيسر للوادي مكوناً من هضبات جرانيتية وصخـور منعزلة. كان بعض هذه الصخور متآكلاً إلى درجة كبـيرة وقد نحتـته الرياح إلى أشكال جماليـة غريبة تشبه النـصب التذكاري وجدنا بينهـا هنا وهناك بعض النقوش – معظمهـا باللغة العربية – ورسـوماً رديئة ليست ذات أهمية.

رجعنا الآن إلى حـافة الوادي وأمامنا مسـتوطنات الرقيطا وعطف الجـبرة في انبعاج آخـر للمجرى. تتكون المستوطنة الأولى التي اتجـهنا نحوها أولاً من قريتين متـميزتين كل منهـما من ٤٠ إلى ٥٠ منزلاً، كلها من طابق واحـد عدا اثنين في القرية الجنوبية، حيث كانت بهما غرف عليا وقيل إنهما من أملاك الرئيس المحلي. كما يوجد بالقرب منا، ناحية الشرق، حطام ما يبدو أنه كان قلعة ذات حجم، في وسط منطقة كبيـرة من أشجار الأثل، بينما كان طول امتـداد مزارع النخيل حوالي ميل ونصـف الميل. توحي البقايـا المبعثـرة للمبـاني والبيوت في المـناطق المجاورة للمقبرة المحليـة أن هذه المستوطنة لا بد أنها كانت ذات يوم لها أهمـية أكثر مما هي عليه الآن. يفصل الرقيطا عن عطف الجبرة نسبـة كبيرة من أشجار الحمض، ومن حين لآخـر يشاهد برج مـراقبة مـدمر، وتشـتهـر العطف مع امتـدادها الشمـالي

الديلمي[١] بأنها أكبر وأغنى مستوطنات الوادي. وعلى أقصى مدى يمكنني أن أحكم به، فإن مزارع الروشن - نمران كانت على الأقل متساوية إلى جانب احتوائها على قريتين، على مستوى حضاري تقريباً، ولكن واحة العطف بدت وكأنها مركز زراعي مهم. يمر طريق السيارات، القادم من الشمال عن طريق رنية، من هنا إلى منطقة بيشة علماً بأن حركة السيارات لم تشاهد هنا أثناء فترة زيارتي. وسوف يكون ظهور السيارات لأول مرة قريباً جداً فيما بعد، في طقس ١٩٣٣م-١٩٣٤م البارد، وتوجد الآن اتصالات منتظمة بهذه الوسيلة بين بيشة ومكة من جهة، وأبها ونجران من جهة أخرى.

كانت أشجار النخيل، حينما اقتربنا منها أول مرة، متباعدة أكثر من العادة، في هذه الأجزاء، بينما توجد في وسطها وفي مساحة معرَّاة، قرية بدائية واسعة، مسوَّرة بسعف النخيل. توجد داخل هذا المسيج عشش من اللبِن ذات طابق واحد، كل منها له سور خاص به، فقد كانت القرية في الحقيقة مستوطنة جذابة المنظر في ترتيب أشجار نخيلها، برغم أنها توحي بالفقر. ظهر قسم الديلمي من هذه الواحة أنه أكثر كثافة من العطف نفسها وذلك بعد أن ظهر لنا حين خروجنا إلى مجرى السيل فيما وراء النخيل، غير أنه يبدو محتوياً -فقط- على قصورٍ مبعثرة وقرية واحدة صغيرة. كان عمق الآبار هنا كما كان في الروشن حوالي ١١-١٢ قامة.

واصلنا الآن السير عبر مجرى تكسوه شجيرات الطرفاء التي كانت تتخللها مياه السيول التي مازالت تجري بينها في جداول عديدة ضيقة. كان أحدها لا يزال

(١) الديلمي: قرية تقع شمال غرب بيشة، وجنوب عطف الجبرة. (المراجعون).

مبتـلاً من أثر السيول الأخيـرة، غير أن أكبـر هذه الجداول كان جافـاً. يقع نخيل الدحو إلـى الوراء فيمـا يلي هذا المجرى على الجـانب الأيمن للوادي، ويمتـد عمق النخيل إلى مسافة نصف الميل، ويدعمه من الخلف مجموعة جميلة رباعية من تلال تسمى السـوير قائمة في وسط سـهل رملي جرانيتي عـريض. ينقسم الوادي، عند هذه المناطق المحـيطة إلى كتل مـفككة من روابٍ رملية علـيها نمو كـثيف لنـباتات الطرفاء والشـار. توقفنا قليـلاً، بعد مـسيرة ١٨ مـيلاً من الجنينة قـبل الشروع في المرحلة الأخـيرة من الرحلة. تقع قـرية الدحو خلف حـزام أشجار النخـيل، على الجانب الأيمن للوادي، مـثلها مثل كل المسـتوطنات هنا مثل الروشن. كـما برزت قمتان لجبل يسمى صدعه إلى البعـيد فيما يلي الطرف الغربي للديلمي عبر المجرى كما توجد قمة صغيرة أخرى تسمى معزه فيما يلي حزام نخيل العطف.

بالسير على الجانب الأيمن للوادي، والبالغ اتسـاعه هنا أكثر من ميل، وصلنا إلى مزارع نخـيل الحريرة. وهي مكونة من قريتين صـغيرتين في كل قـرية حوالي خمسين منزلاً، وتوجد على المرتفع الشـرقي. ومثل بقية المناطق تتكون المنازل من دور واحد محاطة بسـور. وعلى بعد نصف ميل إلى اليسار تبرز مجمـوعة متصلة من أشـجار الطلح تـعرف باسم الحـوق، ويبـدو أنها تخـتـرق السهل من جـوار الروشن، ومن المؤكد أنه أحـد القنوات القديمة والمهـجورة لوادي بيشـة. مثل هذا الوادي، الجاري فوق أرض مستوية، من السهل أن يغير مجراه من وقت لآخر عبر العصور. على الرغم من أن الدحـو تبعد عن الجنينة حوالي ثمانية عـشر ميلاً إلا أنها ترتفع عنها حوالي مئة قدم فقط.

يقع النطاق المعتبر لنخيل الصبيحي في الوادي، فيما يلي الحريرة على بعد ميل واحد ناحية الجنوب الغربي من موقعنا بينما نبتعد نحن تدريجياً عن السهل من جهة

جانب الوادي الأيمن، لنقطع جرفاً عريضاً داخل المجرى. ثم عدنا مرة أخرى للجانب الأيمن، عبر هضبة منخفضة بعد عبورنا لفرع تصريف حرق والذي يبدو أنه يخترق الوادي بالقرب من الصبيحي وبطول حوالي الميلين ويدعى الحمة. ويليه من الخلف في الوادي نخيل الحمة إلى جوار نخيل جنيح، وتبدو الأشجار وهي محتضرة إلى يساره. يبدو أن هاتين المجموعتين من النخيل إلى جانب الصبيحي، تكوّن كلها واحة واحدة ذات مساحة معتبرة، برغم أنها مميزة عن بعضها البعض بأسماء منفصلة.

مررنا الآن عبر هضبة الحمة عائدين إلى المجرى الذي يجري من هذا المكان تجاه الجنوب إلى حيث جبال بعيدة بالكاد تكاد أن تُرى تسمى هضبة بني منبه. كان حوض السيل الحقيقي يبعد حوالي نصف الميل على يميننا في وسط الوادي، وانحدر حزام نخيل النغيلة[١] الكثيف ناحية الجانب الأيمن للوادي، والذي واصلنا سيرنا عليه إلى أن أدركناه وعبرنا بالقرب من قرية نغيلة بعد وقفة قصيرة لأداء الصلاة. وعلى مرأى منا شمخت القلعة الحكومية العظيمة في بيشة. كانت القرية مسورة ومحصنة عند أركانها الأربعة، علماً بأنها بلا بوابات، ويتم الدخول لكل منزل فيها عبر فتحة مكسورة خلال الجدار الذي كان في حالة بالية. فيما يلي النغيلة ظهر شريط سميك من النخيل تملكه الروشن نفسها، ومن ثم عبرنا خلال فترة ليست بالطويلة واحدة من مجموعة قراها، ثم عبرنا أرضاً واسعة لنصل إلى قصر الحاكم الضخم - يشار إليه عادة باسم قلعة بيشة - وعندها تركنا جمالنا أمام الخيام التي نصبت لإيوائنا على مسافة ليست بالبعيدة عن القلعة.

---

(٢) النغيلة: قرية قديمة تقع على الضفة الشرقية لوادي بيشة، وفيها قلعة المحلف المشهورة والمعروفة باسم الثغرة والنغيلة، دخلت الآن ضمن النطاق العمراني لبيشة، العواجي، قبائل المحلف في بيشة نشر بمجلة العرب، ص٣١، ص٤٠٨. (المراجعون).

لقد احتطنا بإرسال الرسولين أمامنا وهما سعدان وابن معدي من الجنينة للإفادة باقتراب موعد وصولنا. ونتج عن هذا الإجراء أننا وجدنا ليس فقط الخيام وقد نصبت لاستقبالنا، ولكننا وجدنا أيضاً العشاء الذي كان على مستوى مشرِّف في انتظار قدومنا وقد تم الإعلان له سريعاً بعد أن تجمعنا في غرفة الاستقبال داخل قلعة قصر الأمير. لقد كان الحاكم خلال هذه الفترة هو عبدالله بن معمَّر وهو سليل آخر لأسرة كبيرة من العيينة. لقد كان رجلاً جذَّاباً، في نحو الستين من عمره وعلى معرفة تامة بأحوال العالم بسبب سفرياته للخارج خلال سنوات عمره المبكرة . وكان بصفة عامة لين الجانب كما كان مضيفاً مثالياً وكنا سعداء الحظ أيضاً بحقيقة أن القاضي المحلي الشيخ محمد بن جارالله، رجل دين من الطراز الواسع الأفق، وبكل ما يبدو، فهو حسن السلوك تجاهنا. لقد كان من قادة التجار في هذا المجتمع الشقيقان سعيد ومحمد ابنا سعود بن كدسة من بلاد غامد أعالي الجبال، خلف بيشة. كان من بين أتباع الأمير الرئيسيين شخص مرح يدعى ابن غريفان وقد ألح على مجموعتنا كلها، بما في ذلك الأمير، وعدد من موظفين آخرين كانوا حضوراً لحفل عشائنا الأول، بأن نذهب إلى منزله لتناول القهوة مباشرة بعد الوجبة. كان هذا الشاب من مواطني وادي الدواسر حيث استقرت عائلته منذ زمن طويل.

لقد تحصلت على كمية كبيرة من الحقائق حول بيشة وما جاورها أثناء هذه اللقاءات إلى جانب ملاحظاتي الشخصية خلال هذه الإقامة المؤقتة التي دامت يومين. علمت بأن واحة رنية لم تكن بأكبر من نصف حجم بيشة، وأن سكانها أكثر تزمتاً من أولئك القاطنين في جنوب الوادي. فقد كانت تحيتهم العادية لبعضهم البعض هي: يا الإخوان! مؤكدة حاسة العلاقة الأخوية التي دعت إليها

النهضة الوهابية خلال العقود الأخيرة. ويمكن اعتبار رنية ووادي الدواسر في هذا الصدد حدوداً خارجية لنجد من ناحية الجنوب، بينما ظلت بيشة رأس الحربة للثقافة العريقة الأكثر اعتدالاً هناك في المرتفعات. هذا التحديد لا يزال فاصلاً صحيحاً بين الشمال والجنوب، ذلك لأن الحكومة السعودية، ولرغبتها في أن تكون كل المملكة تحت إطار معتقدها النقي قد تجنبت دائماً وفي حكمة أية ضغوط على المناطق الخارجية المحيطة التي اعتادت على نظرة دينية أقل صرامة. ومهما كان الأمر، فإن التعصب القديم في المنطقة الوسطى قد تخفف بالنسائم الباردة التي تهب من المناطق المجاورة. ويبدو أن رجالاً أمثال عبدالله بن معمَّر وابن نشمي وغيرهما، قد وضعوا مبدأ التسامح في مقدمة سياستهم الإدارية، مع نتائج مقنعة جداً في صياغة التباين العظيم للجزيرة العربية في وحدة سياسية متماسكة. كان الموظفون النجديون في بيشة يقودهم الأمير، منضبطين في اتباع مواعيد الصلاة والتزامات دينية أخرى دون أية رغبة في معاقبة رعاياهم من غير الملتزمين.

تشمخ قلعة الحكومة، التي تدعى أيضاً قلعة بيشة، فوق السهل على الجانب الأيمن للوادي إلى الجنوب من القرية الكبيرة، أو قل البلدة الصغيرة، الروشن، والتي تشتمل على جزأين مميزين هما روشن بني سلول وهي قريبة من القلعة، وروشن آل مهدي إلى شمالها. إن أولاهما المركز التجاري، والمخصص في معظم الأوقات لبيع الماشية في سوق الأربعاء. بينما تقف خلف الروشن، وفي بطن الوادي على رف مرتفع فيه، بلدة مماثلة هي نمران وهي في حجم القرية الشقيقة، وتمتاز عليها بأنها المركز التجاري المحلي، ويوم سوقها هو الخميس (سوق الخميس). أنها السوق الرئيس للمقاطعة وتعنى بمجال واسع من المناشط التجارية مقارنة بالروشن، خاصة فيما يتعلق باحتياجات الأهالي أثناء عطلة الأسبوع

(الجمعة). تمتد واحة بيشة فيما وراء هذين المركزين وإلى مسافة ميلين لتضم عدداً من القرى الصغيرة ومزارع النخيل، وأميز هذه القرى هما الصفر ومن ورائها قرية صوفان، وكلاهما على جانب الوادي الأيمن. تتبع القرية الأولى لآل نمران بينما الثانية من أملاك عناصر شهران فخذ معاوية، تحت ابن الأزهر.

تنتشر في الوادي إلى ما وراء الواحة الأم، مستوطنات صغيرة حتى حدود قرية ترج التي يقال إنها على مسيرة أربعة أيام ويسكنها قوم من الحضر، يعني عناصر غير بدوية مستقرة. يصل المرء بعد مسيرة اليوم الأول إلى قرية المدراء الصغيرة، ومن ثم وفي اليوم الثاني، إلى الحيفة وفي اليوم الثالث إلى سوق الإثنين، سميت كذلك لسوقها الأسبوعي أيام الإثنين إلى جانب أنها تسمى الحازمي. يصل امتداد الواحة بالكامل من جنينة إلى صوفان على طول الوادي إلى حوالي ٢٥ ميلاً، وربما تبلغ المسافة بين الروشن إلى ترج حوالي ٨٠ ميلاً. وتفصل الروشن عن مستوطنة المدينة في وادي تثليث، مسافة مماثلة، وكما يمكن الوصول إلى المدينة خلال ثلاثة أيام عن طريق خنق – رافد لبيشة يقع فوق الواحة – وسهل المسمى الذي يبدو أنه امتداد جنوبي الميثب.

تكوّن مزارع نخيل الروشن ونمران أجمة كثيفة على امتداد الجانب الأيمن للوادي، وتمتد إلى منتصف الطريق عبر المجرى. يصل متوسط عمق الآبار هنا إلى حوالي ١١ أو ١٢ قامة، غير أنه توجد آبار لا يزيد عمقها عن سبع قامات، وكلها تحت الاستعمال المستمر لري النخيل وبساتين الفاكهة والحقول. كان نبات البر، وهو أجود أنواع القمح، قد تم حصاده وتكديسه على أرضية الدراسة وقد بلغ مرحلة الغربلة في بعض الحالات، كما تم جمع محصول الشعير من قبل. توجد أيضاً مساحة معتبرة مزروعة بالبرسيم، كما تخصصت بساتين الفاكهة لزراعة التين

والتين الشوكي (البرشومي) والعنب، وهذا الأخير ليس بالوفرة الكبيرة ولكن يقال عنه إنه إنتاج من نوعية جيدة. ويكثر في السوق المشمش من اليمن، واللوز من جبال الحجاز. كانت مياه البئر ممتازة كما هي العادة في الرمال الجرانيتية، وكان الصهريج غاطساً في الطين الذي يكوِّن سطح الوادي، ومبطناً جزئياً بالخشب أو بلكات البازلت أو كليهما معاً.

كانت معظم المنازل هنا ذات طابق واحد، محاطة بحوش من الطين، ولكن في منازل الأغنياء كانت غرفة الضيافة وغرف المعيشة للعائلة في الطابق الأعلى. تصنع الأبواب عادة من خشب الأثل مطلياً بالقطران الذي يستخلص من أشجار وجنبات جبلية. ويوظف حطب الأثل أيضاً في صناعة الأسوار الداخلية وفي صناعة النوافذ. وتزاول عائلة كدسة تجارة معتبرة في كل من البن والصمغ. ولا تزال بيشة مركزاً تجارياً ينشط في مثل هذا الوقت في تجارة البن مع اليمن بينما يتم إرسال جزء من الصمغ المنتج محلياً إلى عدن - وهو الذي يجمع من أشجار الكداد الطلحية - ويرسل جزءٌ آخر إلى مكة - صنف الطلح -. كما كان هنالك نشاط آخر جانبي ولكنه مهم لهذه الأسرة ألا وهو تجارة الرقيق، والتي استمرت - ربما لا تزال - بحذر في هذه المستوطنات النائية. اخبرني سعيد -حقيقة- عن امرأة اشتراها وهي طفلة في اليمن بمبلغ ٥٠٠ ريال وهي على مشارف البلوغ الآن، وجاهزة للبيع بضعف ذلك المبلغ. ولمح أنها ستكون زينة لأي قصر يشتريها ولكنه لم يفصح لي عن نفسه بأنه البائع، ولكنه كان هو بلا شك.

كان سعيد أكثر أهمية لي في هذه اللحظة في ترتيب المؤن التي نحتاج إليها لما تبقى من الرحلة. ويمكن لبعض الأشياء التي تحصلنا عليها أن تعطي فكرة عن

الأسعار في بيشة عام ١٩٣٢م. كلَّف كيس من الرز الذي يزن ٢٢ صاعاً حوالي ٢١ ريالاً -يعادل بالتقريب قيمة ٢ بنس للرطل- وكلَّف كيس سكر يحتوي على ٩١ رطلاً ما يساوي تسعة ريالات -بنسان للرطل بالتقريب- وكان سعر علبة السمن التي تحتوي على سبعة وثلاثين رطلاً ونصف الرطل حوالي ٢٥ ريالاً، -جنيه للرطل- بينما كلف القاز ٣ جنيهات للجالون. تضمنت قائمة ما نحتاج إليه من بنود منوعة الأشياء التالية: (دقيق، وقشر البن، ولوز، وزيت، وحلوى راحة الحلقوم، وشاي، وزنجبيل، وتوابل أخرى) وكان عليَّ أيضاً أن أؤمن القماش لفرقتي المكونة من ١٢ شخصاً وهو قماش غير مخيط لأجل الإحرام قبل دخولنا مكة. تطلَّب هذا القماش لفتين من قماش أبيض طولهما ٨٨,٥ ياردة وتكلفتهما ١٨ ريالاً – ٢٧ جنيهاً -. أكملت هذه الأشياء إلى جانب ما تبقى مما أحضرناه من السليل، وهو قليل بما فيه الكفاية، إلى جانب بعض القدور والمقالي كل احتياجاتنا البسيطة للمراحل المتبقية للرحلة.

لقد كان دليلنا حسن بن مهدي القحطاني، مفيداً لي جداً وقد دفعت له مبلغ ٢٠ ريالاً وهو مبلغ يزيد كثيراً عما ورد في العقد الأصلي. وقد تقدمت لتجديد العقد معه على المبلغ نفسه، ولكن نزعة الكرم عندي هزمت نفسها حين طالبني بأربعين ريالاً. ولذلك فقد استغنيت عن خدماته، وكذلك عن خدمات بداح تابع أمير الدواسر مقابل ١٠ ريالات، وهو ما يوازي قيمة موافقته عديمة الفائدة. قمت باسترضاء ابن معدي دون أي إحساس بالالتزام نحوه لأنه كان جاهلاً جغرافياً -مع كونه تقريباً داخل إقليمه الوطني- وبصفة عامة فقد كان عديم الفائدة ومع ذلك دفعت له مبلغ ٢٠ ريالاً، وأعطيت أبا جعشة عشرة ريالات بلا سبب معين، إلاَّ أنني قد أعجبت به. وقد حاز على شكري، بمناسبة إعادته كلباً ضائعاً لي.

لقد ضلت الكلبة العقفاء عنا خلال مسيرة اليوم السابق، عبر غابات الوادي الكثيفة، وقد تتبع هو أثرها حتى خيمة أحد البدو، حيث ربما أغراها راعي غنم ضال ومن ثم حجزها لشكلها الجميل. كما كشف فحصي لدولاب ملابسي الشخصي عن وجود القمل بكثرة في الملابس برغم عمليات إزالة القمل التي قمت بها في الربع الخالي، كما قد قمت بتوزيع أثوابي الملوثة بين رفاقي الأقل صعوبة في الإرضاء.

تميل ظروف الطقس في مثل هذا الوقت عادة للاضطراب والتباين، وتفيد المعلومات الواردة من مكة من صحيفة أم القرى بتاريخ ١١ مارس، بأن وادي إبراهيم قد أصابه سيل من أضخم السيول في تاريخه، إذ تغلغلت المياه إلى صحن المسجد الحرام وتجمعت حول الكعبة في بركة عمقها بوصة ونصف البوصة، وقورنت المناسبة، بواسطة الخبراء، بالسيل الذي استقبل الخديوي المصري عباس حلمي باشا حين أدى فريضة الحج عام ١٩٠٩م. لقد ذكرت من قبل أن وادي بيشة قد فاض عدة مرات قبل زيارتنا وقد نبهنا البرق اللامع من جهة الجنوب، وإن كانت السماء فوق رأسنا صافية، بأن موسم السيول لم ينته بعد. فلا تزال هنالك ثلاثة أيام متبقية من شهر مارس، حينما وصلنا إلى الروشن. وتمتد أمطار جبال الحجاز الشتوية عادة ولو بصفة متقطعة، من ٣٠ أكتوبر إلى ٢١ إبريل، مع امتدادات نادرة خارج هذه التواريخ في كلا الاتجاهين. لقد أجَّلْت دراستي للنجوم لليلة التالية من إقامتنا القصيرة والتي كانت لحسن الحظ جميلة جداً برغم أن عاصفة رملية معتدلة قد حجبت اليوم عنا، مع هبوب رياح عنيفة غير محبوبة وتغير سماء تظهر عليه السحب من حين لآخر. أظهرت ملاحظاتي أن خط الطول المعتمد لقلعة بيشة كان خطأ بمقدار درجة كاملة!.

تناولت وفرقتي طعام الإفطار قبل مغادرتنا بيشة، بعد الساعة العاشرة صباحاً في اليوم الثامن والعشرين من مارس، مع الأمير، وكان الإفطار حنيني وتمر وذلك في الردهة التي كانت جدرانها مزينة في ذوق، بأعمال رسوم خطية ملونة بالحبر ذات صلة خاصة بفنانات أبها وعسير. لم أتحقق من شخصية الفنانة، ولكن من الواضح أن الأمير أو أحد أسلافه قد حصل على زوجة أو رقيقاً نساء من تلك المنطقة. وجدنا الأمير في يوم وصولنا قد عقد جلسة قضائية مكشوفة في ساحة السوق كما جرت العادة، وكانت الإصدارات مباشرة وذلك بإنزال العقوبة علناً. لقد تم جلد رجل كان قد اتهم بعلاقة غير شرعية مع امرأة بالجلد عشرين، أو ثلاثين جلدة، ذلك لردعه من تكرار الإساءة مرة أخرى، بينما المرأة، التي اختفت، بعقل في الصحراء فقد صدر الأمر بالبحث عنها بواسطة الشرطة، لتلقى نصيبها من العقاب الأعظم – غالباً ليس علناً – حينما يتم القبض عليها.

تلا عقاب الرجل لخرقه القانون الشرعي، عرض مؤثر (عرضه) قام بأدائه تلامذة بيشة في احتفال علني «لختمة» أحد الطلاب بإكماله لقراءة القرآن من الغلاف للغلاف. حمل معظم الأولاد وكل واحد منهم كان في أحسن ملابسه ليوم الجمعة، السيوف أو الخناجر وحمل أحدهم بندقية معبأة. بطل المناسبة، بدا فخوراً ولكنه كان مرهقاً بالبرنامج الطويل والمشتمل على أغانٍ ورقصات. كما قام الأمير بتهنئته بحرارة بما حققه من نجاح، وكذلك فعل أعيان المدينة. لقد وضعت الحكومة أهمية كبيرة على التعليم خاصة التعليم الديني لشباب البلاد وليس من الصعب أن تخريج جيل أو جيلين بتربية راشدة سيكون له التأثير المرغوب مع مرور الزمن، دون الحاجة إلى مضايقة الكبار الذين لا حاجة لذكر أنهم لا يزعجون نومهم الخفيف عادة عند الساعة الرابعة صباحاً حينما ينادي المؤذن الرسمي كلاً من

الحاكم وموظفيه لصلاة ما قبل الفجر في مسجد القلعة. لقد أثيرت الحماسة المحلية الدينية إلى حـد ما قبل أسابيع قليلة من زيارتي وذلك بوصـول خالد بن لؤي مع قوة بقية الإخوان الهـادفة إلى معاقبة المتمردين في نجـران. عسكر هذا الجيش بقوة ٢٠٠٠ جمل، ولعدة أيام في سـاحة سوق نمران وكذلك في المساحـات المكشوفة من الواحة، بينما قبل اثنتى عشرة عاماً وللمفارقة، عسكر الأمير الشاب فيصل في الموقع نفسه في طريقه ليخـضع محافظة عسير. كان لبيشة بصـفة عامة تاريخ خال من الأحداث، ولكنها شاهدت الجيوش تعبر شمالاً أو جنوباً للحرب.

obeikan.com